لحظات

قصة للكاتب الفنلندي باڤو فوسي

نقلها عن الفرنسية الدكتور سهيل ادريس

كان الرجال يفتحون حفرة للموتى ، بالقرب من مستنقع . وكانت الاعوام قد أزالت ربوة الحفرة ومحتها . وحين أهيل التراب على ذلك القبر ، كان هناك جوهانس الذي اصطحبه حفارو القبور ... ولقد مضت على ذلك ثلاثون سنة، وكانت الاعوام قدتتابعت لحظات ودقائق وايام...

وحين كان جوهانس صبياً ، فكّر طويلاً في الزمن ، وفي انسلال اللحظات . كان يقف ويفكر : « انني الآن في هذه اللحظة، موجود هنا، ارى غصن هذه الشجرة يتحرك ، واطوي إصبعي امام عيني . » وهو لن يكون هنا بعد ، فان الزمن ، هذه اللحظات بالذات ، ستكون قدانقضت ولن تعود ابداً . انه الآن قد اصبح رجلاً هرماً.انه يعيش لحظات تمر من غير انقطاع ، وكل لحظة منها تزيده شيخوخة .

كان على الرجال ان ينقلوا الموتى من المقبرة الكبيرة، تحت الرابية،الى الارض المقدسة . وكانوا يحفرون صامتين، وكان جوهانس يفكر فيتلك الليلة ، في تلك اللحظات التي شق فيها هذا القبر في المستنقع المجلد،منذ ثلاثين عاماً . وكان بوسعه ان يرى بقايا ذلك الركام من الجذور التي ارتعش خلفها فيما هو ينظر ويفكر : إنني « الآن » أعيش ، انني « الآن » ارى ...

ولقد تصرم الزمن ، واصبح هو شيخاً ، ولكن أخاه ، مذكوراً في تلك اللحظة من الماضي ، راقد تحت الرابية .

وانتزعوا طبقة من الحشائش ، وانهالوا مجدداً على الصلصال الرخو بعناية وتنبه مطردين . ومست الرفوش شيئاً ما وبرزت وسط الصلصال قطعة قاتمة من النسيج . وإذ ذاك ، أخذوا يحفرون بايديهم حفراً رقيقاً ، حتى حرروا من ربقة الأرض اولئك الذين كانوا يرقدون في ذلك القبر . وأخذوا يزيلون الطين عن وجوه الموتى وعن ثيابهم.ولم يكن الطين ليستعصي عليهم ، ولم يكن ليلطخ الوجوه ، بل كان يلبس الموتى لباساً دافئاً ، غير انه كان ينزاح كقالب من الجص ، كاشفاً عن وجوه عارية نظيفة ، حفظها الصلصال من كل سوء، تحت طبقات الحشائش والجليد.وكان هؤلاء الموتى يعودون الى النور كما كانوا تماماً ، حين مددوا هناك ، منذ سنوات خلت . وكانوا قد اضجعوا صفاً على حافة القبر ، اولئك الشبان ، باثوابهم وأحذيتهم تلك . إن الزمن لم يتقدم بالنسبة اليهم . وانما هي« بضع لحظات قد عادت » .

وفتح جوهانس عينين شاردتين . « انهم هنا من جديد » . هوذا الأخ الأكبر . إن في قدميه الحذاء الذي صنعه له « هايكي» السكاف،والجورب الذي سردته له امه الميتة . وإن الأخ الاكبر ما يزال شاباً في العشرين، اما هو ، الأخ الأصغر ، فشيخ هرم ...

إن الزمن لم يتقدم ، بالنسبة للأخ الاكبر . إن ساعته في جيبه ، وهي تسجل اكثر قليلاً من الثالثة ، « تلك اللحظات التي ... »

وعاد جوهانس يعيش بفكره تلك اللحظات .

***

كان ذلك في الحرب الاهلية ، وكان الموت يحصد الشبان . غير ان الأخ الاكبر قد وقع في الأسر . وكانت الام قد ارسلت جوهانس، من الكوخ الذي يسكنونه ، الى القرية البعيدة ، ليحمل للأخ الاكبر جبناً وخبزاً وجوروباً جديداً .

إن جوهانس وحيد في المحطة المقفرة ، وانه ليكاد يبكي لفرط خوفه وشعوره بالضياع . إن الليل منتشر ، وإن كل شيء مهجور موحش،على اشد ما يكون الهجر والوحشة في محطة صغيرة بالريف.وكان ثمة مصباح يتأرجح في رأس عمود ، وبالقرب من مفاتيح السكك ، كان ضوء شاحب يرسل نوره الضعيف ، كأنما هو آت من مسافة لا متناهية . ويفكر جوهانس : انه « الآن » هنا يعيش « هذه اللحظة » ، وهناك المصباح ينفذ بنوره ، « الآن » بالذات .

في الليل ، لم يكن ثمة أحد في المحطة. ولكن لا بد للأخ الاكبر من ان يكون هنا ، في مكان ما . لقد قالت الام انهم قدساقوا الاسرى الى المحطة. وقالت ايضاً إن الجنود لن يطلقوا النار على مثل هذا الفتى الصغير ، شريطة ان يرفع جوهانس قبعته ويحيي بأدب .

وأخيراً ، خرج من الظلام رجل يتنكب بندقية. وفكر جوهانس«انه واحد منهم » ، وأخذه الخوف فجأة . ثم استعاد شجاعته . انهم لن يهتموا حقاً بان يطلقوا النار على مثل هذا الفتى الصغير .

وسأل جوهانس ، وهو يرتجف ويحرجر قدميه خجلاً كما اوصته امه :

— هل « فيل فيوريستو » موجود هنا؟

ونظر اليه الرجل ملياً وقال :

— انه لا ينبغي لفتى صغير مثلك ان يكون خارجاً في مثل هذه الليلة.ألست تخاف ان تأكلك الذئاب او ان يقتلك « الجزارون »؟

اوه ! اجل ، إن جوهانس خائف، ولكنه يحاول ان يبتسم بأدب ويقول:

— لا ، لست خائفاً ، ولكني احمل طعاماً وجوروباً جديداً لفيل فيوريستو. فلقد اوصتني امي بان احملها الى هنا.فهل يريد السيد ان يقول لي اين هو « فيل» الآن ؟

فقال الجندي :

— فيل فيوريستو ، نعم ، اعرف ان في مخزن الاوائل ، خلف الساحة شخصاً يُدعى هكذا . ولكن فيل ، يا صغيري ، ليس بعد بحاجة الى الطعام ولا الى الجوارب الآن . فهو احد المحكوم عليهم ، وهذا المساء ...هيا ، خير لك ان تنجو بنفسك وتعود الى البيت ...

فقال جوهانس ، والغصة في حلقه :

— ولكن امي قالت إن علي ان اعطي « فيل » هذا ...

فتأمله الرجل في صمت . وانتظر جوهانس وهو ينظر الى البندقية نظرة خجلة . بمثل هذه البندقية يطلق الرجال النار ويقتلون على مسافات بعيدة .

وفكر مرة اخرى : « في هذه اللحظة بالذات » ونظر الى البندقية . لم يمض عليه وقت طويل منذ كان ينظر الى المصباح!ولكن تلك اللحظة قدانقضت.

وقال الرجل اخيراً :

— حسناً ، بوسعك ان تسلم رزمتك الى « فيل »

واجتاز الخطوط الحديدية وساحة المحطة الصغيرة. ورأى جوهانس المخزن الذي كانوا يرتبون فيه مؤن المحطة . وكان يبدو عليه الفقر والوحدة . ولقد استشعر جوهانس الرعب من ذلك . وكان جندي

واقفاً يحرس الباب فقال لرفيق جوهانس :

– لا يسمح لأحد بان يرى الاسرى .

– ولكنه صغير ، ولا يمكن اعتباره احداً ما . فبوسعنا ان ندعه يسلم « فيل » مؤونته وجوربه .

ونزل الحارس عند كلامه :

– حق ما تقول. فلا يمكن اعتبار صبي صغير مثله احداً ما. فلندعه يعطي رزمته الى فيل ، بالرغم من اننا ذاهبون بعد نصف ساعة . ومن يدري إذا كان فيل سيحتاج اليها ؟ إن امامه رحلة طويلة ، فيل !

***

فتح الرجل الباب ، ودخل جوهانس مذعوراً . كان دزينة من الرجال جالسين على ستار مشمع فوق الأرض في المخزن . وقد عرتهم انتفاضة حين فتح الباب ، ونظروا بعيون كبيرة . ولكن الجندي أغلق الباب خلف جوهانس ، فتنفس الاسرى الصعداء .

ولقد بهرت جوهانس انوار المصباح الكهربائي المتدلي من السقف ، فلم يستطع ان يرى شيئاً للوهلة الاولى . ثم تعودت عيناه النور ، فرأى الالواح المغبرة والنوافذ العالية المشبكة بالحديد ، قريباً من السقف ، ومركبة الأمتعة المقلوبة الى الجدار والأغطية الجلدية الكبيرة المزفتة ، معلقة بالأعمدة والرفوش والمعاول في الزاوية .

ورأى الرجال المقعين على الستار المشمع ، وهم يرتجفون . وعرف بينهم « ريجونين » صاحب البيت المجاور ، و « جوفونين » الذي اعتاد ان يغني حين كان الرجال يعملون ، ليغريهم بالاسراع في العمل . وكان هذان هما وحدهما المسنين فيهم . ولكن اين هو « فيل » ؟ آه! انه هناك، ذلك المتمدد ووجهه الى الارض . وقد عرفه جوهانس من حذائه الذي صنعه له هايكي السكاف ، وليس بوسع احد غيره ان يصنع مثله ، فهو يبرز للعيان في كل مكان .

ومع ذلك ، فقد سأل جوهانس ، ليتأكد من ذلك :

– هل « فيل فيوريستو » موجود هنا ؟

فنهض « فيل » بجيوية وراح يتأمل جوهانس بدهش :

– ماذا تفعل هنا ، يا جوهانس ؟

– لقد امرتني امي ان احمل لك طعاماً وجوربا جديداً . وها هي ذي.

ومد جوهانس الرزمة الى « فيل » فاذا برجل صغير الرأس يقهقه وهو يسحق قبضته على فمه ويقول :

– طعام وجورب جديد !

وتناول الأخ الأكبر الرزمة، وحدد بصره الى جوهانس بصورة غريبة، ثم فتح الرزمة بارتباك ، ونظر الى الخبز الطري والجبن والجورب الصوفي الجديد الذي سردته له امه. والقى الآخرون نظرات فضولية ، وقهقه الرجل القصير مرة اخرى في يده :

– السيدة الحبيبة ! انظروا كم هي تُعنى « بفيل » ! إذهب فقل لأمك ان فيل سينبت الاقحوان عما قريب !

فأخذ الآخرون يدفعونه ، وهم غاضبون . وهدأت قهقهات الرجل القصير ، ولكنه أضاف :

– نعم ، إن « فيل » سيُصاب بالوان من المغص ...

ولكن الآخرين لم يكونوا يتذوقون نكاته ، فأخذ ريجونين يصيح به حتى أسكته ، ولكنه لم ينقطع عن الضحك خلف يده .

وادرك جوهانس الحقيقة المريعة ، فبدأ يرتجف وتصطك اسنانه. ولكنه جاهد لاستعادة شجاعته . لقد خشي ان يظهر جزعه امام الرجال ، فاصطنع انه لم يفهم شيئاً . ومرة اخرى ، عبرت رأسه فكرة سريعة كالبرق : « إن هذا يحدث الآن : بينما المركبة مقلوبة الى الجدار ، وبينما المصباح يرمي ظلاً على حذاء « فيل » .

وفي الخارج ، كانت الاسلاك التلغرافية تئن على عادتها في المحطات المقفرة ، ولكن صوتاً اقوى وارهف واكثر اهتزازاً كان ينبيء بان الريح تهب . وكان المحكومون يصغون الى الانين . وقال احدهم :

– لا بد ان تهب غداً عاصفة ثلجية ، ما دامت الاسلاك تغني هكذا .

فقهقه الرجل القصير خلف يده :

– اذن ، فستهب عاصفة ثلجية غداً ؟ ها ها ها ! وما يكون شأننا غداً؟ اني اتساءل عما اذا كان في الجحيم عواصف ثلجية !

ولكن الآخرين غضبوا ، وأرسل « ريجونين » ضربة شديدة جداً الى الرجل القصير ، أوقعته ارضاً .

وكان جوهانس واقفاً بالقرب من اخيه، وكان صامتاً ،ولكن كان بوده ان ينتحب من فرط الخوف . وكانت هيئة الأخ الأكبر غريبة ، كهيئة سائر الرجال ! إن في هذا الانتظار شيئاً مروعاً حقاً ! وإن جوهانس ليشعر بذلك ، وكم يود لو ينقذ « فيل » والآخرين ، ولكن لا حيلة له في هذا. يخيل اليه انه مسمر بدبابيس من الزجاج ، في هذا المكان ، في « هذه اللحظة » .

وقال له فيل اخيراً :

– لقد آن لك ان تذهب . عانق امنا وقبلها عني .

وتمتم جوهانس :

– ولكن المآكل و ... الجورب .

وقطع اخوه الخبز والجبن ، واعطى كلاً من رفاقه قطعة . ونزع الرجال قبعاتهم وبدأوا يأكلون بنهم ، وحتى الرجل القصير ، الذي كف عن القهقهة .

واذ ذاك ، خلع فيل حذاءه ولبس الجورب الذي سردته له امه. ونظر اليه ، وحرك اصابعه داخله ، ثم قال لجوهانس بصوت رصين متمهل :

– انه جيد ودافيء جداً ، هذا الجورب ، كجميع تلك الجوارب التي تحسن امنا سردها . اني ممرور جداً به . صحيح إن نيسان على الابواب ، ولكن الطقس ما يزال بارداً في الليل . اترى هذا الحذاء ؟ لقد اخترقت رصاصة كعبه ، ولكنه ظل مع ذلك متماسكاً . ولو انه لم تصنعه يدا هايكي السكاف، لانتزعت الرصاصة الكعب كله . انه حذاء متين . وبودي لو اعطيك اياه، ولكني لا استطيع ذلك. والآن ، ينبغي ان تذهب ، وقبل امنا عني .

وكان الاخ الاكبر يوشك الآن ان يبكي . ولكن في تلك اللحظة ، فتح الباب وأتى صوت آمر يقول :

– ليخرج الجميع ، مع الرفوش والمحول .

***

فأطاع الرجال ونهضوا على مشقة . وقد سقط بعضهم على ركبتيه . اما « فيل » فقد جر حذاءه وراح يعين ريجونين على إنهاض الذين وهنت قواهم. وقال الرجل الواقف على الباب ، وقد نفد صبره :

– هيا ، عجلوا . احملوا الرفوش والمحول .

وكانت غريزة الطاعة هي التي تدفع الرجال . وكانوا ينظرون امامهم باحداد ، وايديهم ترتجف ، ولكنهم اتجهوا الى الزاوية يتلمسون اوائلهم

ويخرجون معاً ، فتصطدم اوائلهم فيا بينها وترسل الصخب .

وفي الخارج ، اوقفهم الجنود صفوفاً وجعلوا ينادونهم باسمائهم . وتسلل جوهانس بين سيقان الكبار ، وحاول ان يلحق ، بفيل وهو ضائع الرشد. ولكن الجنود رأوه ، فصاح احدهم :

– من اين خرج هذا الصبي ؟

– اهرب بسرعة ، ما دام في وسعك ان تهرب بعد .

وتسرب جوهانس خلف المخزن ، تحت الاسلاك التي تئن . وسمع امراً ثم سمع صوت الفرقه التي تبتعد . واختفى الجنود والأسرى في الظلام. وحين القى جوهانس نظرة ، ولاحظ انهم قد ذهبوا ، اجتاز الساحة ركضاً حتى المحطة . وكان المصباح الوحيد يتراقص في رأس العمود ، وبالقرب من مفاتيح السكك كان نور شاحب يضيء كأنما هو آت من مسافة لا تحد . إن كل شيء هو الآن كما كان منذ حين ، اذ كان جوهانس واقفاً هنا . ولكن الآن ، انقضت تلك اللحظة ، وهي لن تعود ابداً . إن جوهانس واقف هناك ، يمزقه ضيق ويخنقه خوف . لقد اقتادوا « فيل »...

وأصغى فسمع صوت الرفوش والمعاول آتياً من الجهة المقابلة لكومة الخشب وانطلق يعدو . انه سيأخذ بيد أخيه ويركض الى البيت معه .

ورأى صفاً قاتماً من الرجال يمشون بمحاذاة الطريق . كان بعضهم يحمل بنادق ، والبعض الآخر ادوات . وقطعوا الطريق واتجهوا نحو المستنقع عبر الحقول التي تغطيها الثلوج . وتجاوزوا خرائب سوداء لبيت محترق .

وكانت شمس آذار قد جعلت الثلج اكثر رخاوة ، ولكن الليل الهابط والجليد شكلا طبقة قاسية ليست من الكثافة بحيث تحتمل هؤلاء الرجال ذوي المشية الثقيلة . فاذا هم يمشون ويتقدمون على مهل . ولكن جوهانس عدا خفيفاً كالارنب وادركهم بسهولة .

وكانت امسية جميلة من مستهل الربيع ، وكان القمر المكتمل ينشر عبر غلالة خفيفة من السحب ضوءاً ضعيفاً لا ظلال له فوق السهول .

وتقدم جوهانس في مثل خفة الفأر وخوفه . كان يخشى ان يراه الجنود فيطلقوا عليه النار . وتوقف الرجال بالقرب من المستنقع الكئيب العاري ، ولم ير اي منهم ذلك الطيف الصغير الذي يتسلل خلف كثيب من الحشائش . وقد اصطفوا وتناولوا بنادقهم . وانتزع القائد مسدسه وصاح :

– الى العمل ، هيا ... أزيلوا هذه الثلوج !

فأخذ الاسرى رفوشهم ، وضحك الرجل القصير ضحكة غريبة ، كما أطلق الآخرون اصواتاً غريبة وتمايل بعضهم كما انهم سيصابون بالإغماء. على انهم حاولوا جميعاً ان يزيلوا الثلوج بمعاولهم ، لأن صوت القائد كان كقرقعة سوط .

***

وكان الأسرى مساحة مستطيلة ، بينما كان الآخرون يراقبونهم ، والبنادق تحت أذرعتهم . ثم حمل « فيل » و « ريجونين » المحول وبدأا يضربان الارض المجلدة . وكانت الارض المثلجة قاسية كالصخر ، فلم يكن يتطاير منها الا بعض شظايا تحت ضربات الحديد . كان بعض الرجال يتمايلون وهم ينظرون الى الجنود ، وكان يحدث بين وقت وآخر ان يترك أحدهم رفشه يسقط منه ، متمنياً لو تشل يده وهو يقوم بهذا العمل الأخير .

واعتمد رئيس الفرقة على ركام الحشائش، حتى كان بوسع جوهانس، اذا ما تطاول قليلاً ، ان يمس حذاءه . وقد همهم يتمتم: « بم تراهم لوثونا.. ليس هناك الا الدم ... » ولكن سرعان ما حرك بندقيته وصاح : « هيا اسرعوا ، وانتهوا من هذا العمل ».

وحتى الذين لم يكونوا يعملون إلا ان يتعثروا هنا وهناك ، بدأوا يحفرون الأرض . وكان الرجل صاحب البندقية يشبه قدراً محتوماً. وكان « فيل » و « ريجونين » يعملان بانتظام . كانا يرسلان ضرباتهما بدقة ومقياس ، فلقد اعتادا هذه الأداة . اما الآخرون الذين يبدو عليهم انهم مدنيون ، فقد كانوا يضربون ضرباً أخرق ، وكان القضيب الحديدي كل لحظة يهتز ويصدي .

ولقد تحطم الجليد شيئاً فشيئاً ، وحاول احد الجنود ان يساعدهم، ولكن القائد امره ان يتراجع . وتمتم ريجونين الشيخ :

– إن امنا الارض قاسية جداً ، فليس بوسعنا ان نقول انها تستقبلنا مفتوحة الذراعين .

وسمع جوهانس صوت « فيل » يقول :

– هيا بنا ، ايها الرفاق ، لننجز عملنا . انه آخر عمل لنا .

فقال ريجونين :

– اجل ، لقد كان شعارنا دائماً انجاز العمل . ولكن غن لنا شيئاً يا جوفونين . لا تنس ان تقوم بواجبك انت ايضاً .

وكان قد سبق لجوهانس ان سمع جوفونين يغني للرجال الذين كانوا يعملون معاً في الحفر او في جر الحطب . كانوا آنذاك يعملون جميعاً، وهم يتابعون إيقاع الغناء . وكان اخوه قد قال له إن العمل يصبح ايسر واسهل اذا تبعوا الايقاع . ولم يكونوا يستطيعون احياناً الامتناع عن الضحك حين كان جوفونين يدخل في اغانيه بعض الكلام من عنده. وكانت هناك بضع اغان لم يكونوا يسمحون لجوهانس ان يستمع اليها .

واتجه جوفونين فتسلق بخفة رابية صغيرة من الثلج وبدأ لحناً بطيئاً:

هاي جو جا جونتان بو

كيري كيري بانلوم كوتاجو

وها هي ذي المحول ترتفع الآن وتضرب على الايقاع ، كما لو ان الحقيقة قد نسيت . واخيراً ، ثقب الجليد وظهر العشب. واستبدلت الرفوش بالمحول وبدأ الرجال يجزون العشب. وسمع جوهانس القائد يرسل الشتائم بصوت منخفض . وجعل الأسرى والجنود يتبادلون النظرات . وقال ريجونين :

– إن التبغ الذي معكم تبغ ممتاز ، وان تدخينه لشيء لذيذ بعد عمل شاق . فشكراً .

وانفعل الجنود ، وقال احدهم:

– لا تسيئوا الظن بنا كثيراً . اننا لم نكن نريد ، ولكنكم سمعتم الحكم . ربما كان القضاة هناك ، في العالم الآخر ، لا يشبهون هؤلاء، وربما لم تكن اثقال موازينهم كاثقال موازين القضاة على الارض . إذن ، فلا تسيئوا الظن بنا كثيراً .

ومرت الدقائق ، وأشعلت اللفائف حتى آخرها ، وبرد العرق على جباه الرجال . وتمالك القائد نفسه وأصدر امره :

– ليقف الاسرى صفاً ازاء القبر . مفرزة التنفيذ !

***

والآن ، يرى جوهانس كل شيء ، في نور مفاجيء. لن يكون هنالك عفو ، وسوف يطلقون الرصاص على فيل وعلى الآخرين . إنه يريد ان يزحف الى الخارج ، ويبتهل الى القائد ، ويعود لينقذ فيل والآخرين . ولكنه لا يستطيع ان يتحرك ولا ان يصيح. انه لا يستطيع الا ان ينظر

ويسمع ما يجري .

وفي ضوء القمر الذي يشع الآن، يرى مطلقي الرصاص صفاً واحداً. وإن الاسرى ليرتجفون ، ولكن لا من البرد . إن اللحظة الأخيرة قريبة قرباً مروعاً ، قرباً لا شفقة فيه . اوه يوم آخر !... احفروا قبراً آخر في الارض المجلدة قبل ان تدخلوا الى الخلود ! رحمتك ايها الرب ! اعطنا دقائق اخرى !

وصاح القائد :

— وقوفاً ! اصطفوا بهدوء . مفرزة : انتبهي !

ولكن صفّ الاسرى فسد مرة اخرى . لقد اخفى بعضهم عينيه وانطوى على نفسه ، كما لو انهم كانوا يخشون الضربات ، وأقعى البعض الآخر على الارض وجعلوا يئنون . ووحده، بقي ريجونين واقفاً ، مستقيماً، ينظر الى الجنود بهدوء. وكذلك كان فيل واقفاً ايضاً،ولكنه كان يغطي وجهه بيديه .

وصاح القائد غاضباً :

— الا تستطيعون ان توقفوهم لحظة هادئين ؟ يا إلهي .. انه ليس امراً هيناً ، بالنسبة الينا ايضاً !

وأخذ ريجونين يشدّ من كانوا متهافتين على الارض من ياقاتهم. وكان فيل يساعده . وسأل جوفونين :

— ايصبح الأمر اهون ان انا غنيت ؟

واخذ يغني . وانضم اليه صوت ريجونين العريض ، وسرعان ما أخذهم الايقاع ، فجعلوا يراوحون في مكانهم .وحتى الضعفاء ، أخذوا يشاركون في الغناء ، بلهجة متحدية :

كلا ، لن يظفروا به ، كلا لن يأخذوه
فان في رأس كسول السماء فكرة اية فكرة ...

واعطى القائد امراً ، فارتفعت البنادق بطيئة ، وعلى مضض .

وظل جوهانس ينظر من مخبئه . انه لن يتمكن من رفع اصبعه الصغير ، حتى ولو اتجهت البنادق اليه بعيونها المستديرة . ومرة اخرى . دفعه شيء ما الى التفكير : انني اعيش تلك اللحظة ، « الآن » ...

وكان ثمة غصن يخزه في ظهره ، ولكنه لم يستطع التحرك . كان عليه ان ينظر فقط. وكان لحن الاغنية البطيء الكئيب يصدي عبر المستنقع.

وكانت احذية المحكومين ترتفع وتسقط في ايقاع ... ولم تكن فوهات البنادق تتحرك . إن قوة هذه الدقيقة هائلة . ورفع القائد يده . كان ثمة شيء بسيط يمنعهم من تحريك أصابعهم: إنه العقبة الأخيرة قبل ابواب الخلود. وكانت البنادق تنظر الى الأسرى بعيونها السود الجامدة ، في حين ان الاسرى كانوا يحددون اليها النظر متحدياً . واشتد بهم حماس الغناء ، وهم يراوحون :

سيرقص اللصوص امام ابواب السماء
وسيعزف السادة على كماناتهم ...

—« نار ! »

وتدفقت موجة حمراء من فوهات البنادق . وتنقلت اصوات الطلقات اصداء صماء فوق المستنقع ، تتدحرج وتقصف الروابي البعيدة وتعود الى المستنقع كموجة الى الشاطيء . ولكن جوهانس كان قد سقط في الاعشاب.

***

وحين استعاد حواسه ، كان البرد قد خدر اعضاءه ، ولكنه افلح في ان يبتعد عن الحشائش . ونهض ينظر الى المكان الذي كان فيه منذ لحظات قبر عميق . لقد نصبت فوقه الآن رابية ولا شيء يتحرك في اي مكان . إن المستنقع والعالم الذي يضيئه القمر مقفران صامتان .

ورأى في الثلج الابيض آثاراً خلفها الجنود حين ذهبوا . اما آثار اخيه وآثار الآخرين فهي لا تذهب الا في اتجاه واحد .إن الاخ الاكبر والآخرين راقدون تحت الرابية .

وصرخ جوهانس ، وارتمى على الرابية، واخذ يحاول ان يحفر باصابعه الارض التي بدأ الجليد ينسج فوقها خيوطه .

***

تلك كانت امسية من امسيات الربيع . ولقد تبعتها امسيات ومسرات تحولت الى سنوات وعشرات السنوات . لقد كانت لحظات ، ثم انقضت ، ثم اتت لحظات جديدة . اما الآن ، فان هذه اللحظات تعود .

ان الاخ الأكبر والآخرين راقدون هنا . إن ريجونين يشد في يده علبة ثقاب فارغة . وان الاخ الاكبر ينتعل حذاء يرتفع وينخفض في سيره نحو الموت . وهو يرتدي ايضاً جوزباً جديداً سردته له امه الميتة . اما هو ، الاخ الصغير ، فانه شيخ هرم ، ولكن الاخ الاكبر ما يزال في العشرين من عمره .

***

واحس جوهانس باضطراب . فمسح وجهه ونظر الى يديه المعروقتين. إنه رجل هرم ، اما الأخ الأكبر . فهو شاب ، لأن الزمن ، بالنسبة اليه، لم يتقدم منذ اللحظة التي ...

إن على جوهانس ان يغمض عينيه ليعود الى اللحظة الحاضرة . لا ، انه لا يعيش بعد تلك الليلة الربيعية المنصرمة. ان الاخ الاكبر لم يفعل الا ان يعود من اللازمن ، وها هي ذي الشمس ، بعد ثلاثين سنة ، تلتمع على وجهه .

***

كانوا راقدين هنا ، هادئين . ويخيل لجوهانس انهم سيبتسمون ويقولون له :

« إن اللحظات التي تمضي ليست الا لحظات ، ولو كانت شديدة الايلام. وإن الحزن والفرح ، وإن رعشة الانتصار ، وإن مرارة الهزيمة .. كل ذلك ليس الا برق الخلود الخلب وسرابه . إن الخلود هو وحده الحقيقي وهو وحده الذي يدوم ... »

لسان العرب

الكتاب الذي يكمل كل مكتبة
والمرجع الذي لا يستغني عنه اي اديب أو دارس

ظهر منه المجلدان الاولان
(حرف الالف وحرف الباء)

تصدره

دار الفكر—دار مكتبة الحياة

في طبعة دقيقة صحيحة ، وأسعار معتدلة موافقة